

## يوميات اليهودية Journal de Judée

Par: Jacques Pinto. Paris: Seuil. 1989.

### (زمن السُّعار)

السياسة الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزة هي سياسة يتولاها عملياً ضابط الصف الثاني، أي ضباط برتبة نقيب، يتولى كل منهم قيادة كتيبة تكون مسؤولة عن ضبط الأمن في منطقة محددة لمدة ثلاثين أو أربعين يوماً، ثم تخلفها كتيبة أخرى ونقيب آخر لمدة مماثلة.

والشهادة التي يدلي بها النقيب بنتو، في كتابه الذي صدر باللغة الفرنسية في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي، هي تأريخ لفترة خدمته هذه في منطقة رام الله. ويبدو أن بنتو يعتبر أن الفترة التي أمضاها في مواجهة انتفاضة أطفال الحجارة لا تختلف عن الفترات التي يمضيها نظرائه، ولهذا فإنه لا يحدد تاريخاً لبدايتها ولا زمناً لنهايتها، بل يختار لذلك أداة توقيت من نوع خاص: فيوميات الخدمة تبدأ بالشهيد رقم ٢٣٢، وتنتهي بتسليم المهمة إلى الكتيبة اللاحقة مع الشهيد رقم ٢٥٢.

إنها، إذًا، ديمومة فلسطينية متجانسة، تمتد بصورة طويلة وعلى خط متواصل شبه مستقيم: الأمس فيه كالاليوم وكالغد يملؤه أطفال أولئك الذين مسحت أراضيهم بالجرافات، بتمردهم وحجارتهم.. وشهادتهم. ومدة الأربعين يوماً لا تنتمي إلى زمنهم هم، بل إلى زمن العسكري الإسرائيلي الذي سيمضي هذه الفترة متنقلاً بين بيت عور التحتا وبيت عنان وأم شيخ والنبي أيوب النبي صموئيل ومخيم العمري، إلخ، في منطقة رام الله، مثلما يمضيها زميل آخر في منطقة نابلس أو الخليل أو سواهما.

وإذا كان زمن الطفل الفلسطيني زمناً طويلاً فإن زمن الضابط الإسرائيلي زمن دائري. ذلك بأن الأحداث لا تفعل سوى أن تعيد نفسها؛ بمعنى أن ما شاهده سلفه عاناه هو، وسيعرفه خلفه. كل منهم سيمر بمراحل أربع:

١- مرحلة التكيف. وهي تغطي فترة الوصول إلى منطقة الخدمة والزمن اللازم للتعرف إلى الأرضية وإلى السكان، ومشاهدة انهيار المبادئ والتكيف إزاء تلك الترسانة الواسعة من قوانين الطوارئ والقوانين

الاستثنائية الموروثة من الانتداب البريطاني، والوعي بأن مواجهة اليوم هي مع أطفال أولئك الذين مسحت أراضيهم بالجرافات.

٢- مرحلة التطبيع. أي مرحلة الرتابة حيث تقسو القلوب فلا تعود تستغرب أمراً ولا تندهش لشيء.

٣- مرحلة التفتت. وهي تلك المرحلة الأخيرة التي تفضي مراكمة التعب والغضب إلى ترك العنان للبهيمة الكامنة في أعماقنا، فيصبح الضغط على الزناد أمراً ميسوراً. إنها المرحلة التي تتصادف مع نهاية الخدمة.

٤- أما المرحلة الرابعة، فهي ما يحل بعد ذلك، وزمنها هو "زمن الألم". والكتاب هو بطبيعة الحال ثمرة هذه المرحلة الأخيرة، أي أنه كتب عملياً بلغتها.

غير أن لهذين الزمنين المتقابلين جامعاً يجمعهما وقاسماً مشتركاً يؤلف بينهما، هو السُّعَار. ولهذا، فالكتاب يستهل يومياته بإعلان حكومي صدر في آب/ أغسطس ١٩٨٨، ينبه إلى خطر انتشار وباء "الكلب" أو السُّعَار في تخوم القدس، ثم يكرس الفصل الأول من الكتاب لـ "السياسة البيطرية" التي اتبعت في تصفية الثعالب والكلاب المسعورة والضّالة. وستظهر إحدى هذه الحالات في قرية النبي صموئيل التي سيتولى بنتو وكتيبته "ضبط الأمن" فيها. وحين يصل سرد اليوميات إلى قلب المرحلة الثانية، يصبح الأدميون مسعورين شأن البهائم. فالجندي الذي يواجه المدنيين لا يعود سوى جندي مسعور، والضابط الذي يوقظ الناس من نومهم ليرغمهم على تنظيف الطريق ويرعب الأطفال ويوقف شيخاً في التسعين هو مسعور آخر. بلى، فوصف سياسة القمع هو السُّعَار، كما أن الإعدامات التي توقعها الانتفاضة بالمتعاونين والعملاء تحمل الجرثومة ذاتها. بل أن تعابير الفرح نفسها تصاب بالوباء: فالضباط يلقون الأوامر نباحاً، في حين تبدو صرخات المتظاهرين في مخيم العمر صرخات مسعورة. وحتى الوجوه الملائكية فإنها لا تفعل سوى أن تخفي السُّعَار.

يبقى أن أبرز مظاهر السُّعَار هو القوة: القوة التي لا تستطيع أن تحترم شيخوخة رجل في التسعين "كي لا يبدو الضابط ليناً هيناً فيشجع مظهره اللين هذا المتمرد". لكن، أين هم المتردون؟ كلما بحث الضابط عنهم لم يجد أحداً. فحين يهاجم الجيش الإسرائيلي رجلاً فلسطينياً ضخماً يقال إنه يصفي

المتعاونين، يكتشف أنه ليس رياضياً نرجسياً لمقاومين مسلحين، يكتشف أنه كان يتعرض لنيران... مستوطنين. وحين يداهم "ملتقى قادة الانتفاضة"، يجد أطفالاً يرتجفون ورجلاً شيخاً ودابته. يقول العسكريون، شأن السياسيين، إن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة، لكن أين هم؟ فالنقيب لا يجد إلا السعار.. ووراء السعار الثورة و"الأطفال الذين يشكلون طليعة هذه الثورة الغربية المؤلفة من مزيج من الجرأة العجيبة والسذاجة والمراوغات الماكرة والبؤس المضني...". لهذا، فإن لغة القوة تفضي إلى العقوبات الجماعية، والعقوبات الجماعية تفضي إلى تراص الفلسطينيين والتفافهم حول قيادتهم ومحرضيهم. ومع هذا، فإن السياسيين "القاصري النظر يقولون إنه إذا لم يردع الجيش الاستفزات والفوضى، ردعته هي." لكن كلامهم هراء. "فلعبة العسكر والحرامية التي يصرون على اعتبارها حرباً، هي لعبة فقد الجيش فيها المبادرة منذ زمن." وقائد قوات الضفة الغربية يلخص الوضع بدقة بالغة: "لقد عدنا إلى العصر الحجري أو عصر الحجارة. على الجيش أن ينجز بأي ثمن.. مهمة مستحيلة." والحال هو أننا هنا مقتنعون بأنه يجب تحضير مرحلة ما بعد الانتفاضة. أما إنجاز المهمة المستحيلة فلا يعني سوى تفويض فرص المستقبل.

انتهى زمن العسكري الإسرائيلي، واكتملت الدورة. وقبل أن يغادر - أي في اليوم الأخير لمهمته - وجد ضابط العمليات وهو نقيب آخر نفسه أمام تظاهرة ضخمة في مخيم العمري. كيف يوقفها؟ ربما عبر محرضها، ومحرضها هو ولا ريب ذلك الشبح الطويل المقنّع بقناع أبيض ويلبس سروالاً أبيض. فيصوب عليه بعناية مستهدفاً ما فوق ركبتيه، فيقع "المحرض المقنّع" أرضاً من دون صراخ.

لكنه كان فتاة في الثالثة عشرة، هي ناهل طوشي التي قضت نحبها بعد ذلك بأسبوع في مستشفى المقاصد في القدس.

انتهى زمن العسكري الإسرائيلي، الدائري. أما زمن الفلسطيني، فمستمر ومتواصل. وعند نقطة الانتهاء يبدأ زمن النقيب التالي والكتيبة التالية، وتبدأ الحلقة التالية ويبدأ العد من رقم ٢٥٢.

نصير مروة

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>